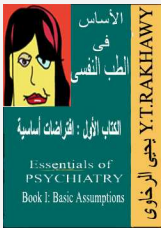


1201- فروق ثقافية، وإشكالات لغوية



استطرد آخر

فروق ثقافية، وإشكالات لغوية

إلى أين هذا التشكيل، وبأى أجدية يحكى ؟
(مراجعة ضرورية لمصطلح "فرط العادية")

برغم أن بداية التورط في كتابة هذا العمل عن "الافتراضات الأساسية" كانت تحت ضغط بعض بناتي وأبنائي وتعهدهم بالترجمة إلى الإنجليزية، إلا أنني وجدتي أتمادي في مراجعة أفكارى وفروضى السابقة، لأكتشف أن أحدا لم ينتبه إليهما، ولا إلى ما ورد بها من تجاوزات، أو حتى أخطاء. ثم أتأكد أيضا أن تمسكى بالكتابة باللغة العربية، بل والعامية، هو لشدة ارتباطى بثقافتى، بل واستحالة غير ذلك في مجال هذا.

ثم إنه تصادف مع هذه المحاولة (الورطة) أن تتطوع أحد أبنائي بترجمة بعض ما أنشر يوم الاثنين مما يسمى "حكمة المجانين" إلى اللغة الإنجليزية التي تعلم بها طول عمره (بعد ومع حفظ القرآن الكريم)، كما أنه يكتب بها (بالإنجليزية) شعرا جيدا، إلا أنني اكتشفت بعد حلقة أو اثنتين أن ما ترجمه لا يوصل إلى (بالإنجليزية) ما أردته، فرحت أناقشه في ذلك، وإذا به بطيب خاطر، يوافقنى، ويعارضنى، كما بما شاء، ثم إنه طلب منى أن أراجع ترجمته أولا بأول قبل النشر، وقد كان، وهذا ما جرى غالبا ونستفيد نحن الاثنين، وأغير أحيانا في المتن الأصلي بالعربية.

تصادف أيضا أنني قررت أن أرجع إلى الأصل فيما استلهمه من مواقف ومحادثات لمولانا النفرى، وإذا بي أكتشفت أن انتقادات زميلى في النشر الأول د. إيهاب الخراط، كانت انتقادات خاصة به تماما، وأنه كان يجتزئ من بعض المواقف ما يرى، وينتقى من أخرى ما يروق له، ثم يعقب على هذا أو ذاك، فأروح أنا - كما ذكرت سالفنا أيضا- أعقب على النص

الأصلي للنفري، ثم على تعقيبه، دون أن أراجع الأصل كله، فقررت أن أرجع إلى أصل أصل، وبالتالي بدءاً من الأسبوع الماضي، تغير الحال، واقتربت أكثر من الأصل، وإن كنت لم أصل إلى ما أبغى، خاصة بعد أن رجعت إلى ترجمة النفري إلى الإنجليزية بواسطة المستشرق الأمين الرائع "أرثر يوحنا أربري"، وإذا بي أكتشف بعض ما وصله من النفري بشكل يضيف إلى ما وصلني من الأصل ومن الترجمة معاً.

لم يقتصر الأمر على ذلك، بل إنه تصادف كذلك، في نفس الوقت تقريباً أن وصلتني مسودة اقتراحات ترجمة بعض الكلمات العربية البائدة ببعض الحروف الأولى من لغتنا القادرة، وذلك بفضل جهد اللجنة الشديدة الأهمية المشكّلة تحت رعاية الشبكة العربية للعلوم النفسية لعمل "معجم المصطلح النفسي الموحد" باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية، ذلك الجهد الرائع والضروري الذي تقوم به مجموعة من الزملاء والزميلات في مختلف التخصصات النفسية بتعاون لا مثيل له، ومحاسن لا بديل عنه من الصديق والإبن البالغ الإخلاص والنشاط رئيس الشبكة العربية د. جمال التركي، وذلك بهدف إرساء قواعد لغة مشتركة في تخصصنا فيما بيننا نحن العرب، أملين أن تكون خطوة أساسية تعمل على تيسير تفاهمنا مع بعضنا البعض، سواء للاتفاق أو للنقد أو للتكامل، وبرغم تقصيري الشخصي في المشاركة في هذا العمل الأساسي الذي لا غنى عنه، إلا أنني توقفت أتساءل: ثم ماذا؟ إلى أين؟ وبعد أن اطلعت على بعض ما جاء في حرف "الحاء" مثلاً، دعوت الله لهم بالتوفيق، واحترمتهم أبلغ الاحترام وأجله، وشكرتهم نفسى أعظم الشكر وأبلغه، ومع شعوري بالتقصير، عدت اعتذر لهم مرة أخرى في السر، ورجعت إلى قضيتي وهمي وناسي أتساءل: يا ترى هل سوف يتفقون بالأغلبية؟ أم من واقع الممارسة؟ وهل سيخضعون لوصاية المعاجم وهي تخنق المضمون في سجن الرمز، أم أنهم سوف يستلمون تاريخ اللفظ ليستشعرون نبضه؟

هكذا عرفت أكثر لم اعتذرت، ودعوت لهم بالتوفيق فيما أنا أعجز عنه.

مراجعة مصطلح جديد:

آثار هذه المصادفات الثلاثة غمرتني وأنا على وشك أن أحرر نشرة اليوم إكمالاً لما بدأتها للتفرقة بين تجليات الوجود البشري الدورية في الصحة والمرض، ما بين حالات (الحالات الثلاثة المتناوبة إيقاعاً: حالة العادية، وحالة الجنون/اللاجنون، وحالة الإبداع) ثم ظاهرة الجمود الدفاعاتي التي اخترت لها اسم (فرط العادية)، وأخيراً اضطرابات الشطح و/أو الاندمال أو كليهما، وهما الدليل على الناحية الأخرى من المرض: (الجنون)، أقول إنني توقفت وقلت أستشير "جوجل" خشية أن أكون قد ابتعدت كثيراً عن ما يمكن أن يصل إلى الناس، أو حتى عن ما أعنى، وإذا بي أفاجأ بأن مصطلح فرط العادية Hyper-normality يستعمل بمعنى إيجابي غالباً، وهو يشير إلى تفوق كمي في سلوك بذاته أو أداء بذاته، يصل به

صاحبه إلى مستوى "فوق عادى" وترجمت ذلك بيئى وبين نفسى إلى Super-normal، وليس Hyper-normality مثل التفوق الحسابى الخاص Hypercalculia سواء لبعض الأسوياء أو عند بعض ضعاف العقول الموهوبين،

وحين رحت استشير جوجل عن نفس المصطلح فى اللغة العربية "فرط العادية"، أفادنى أكثر بما يتعلق بزملة نقص الانتباه وفرط الحركة Hyperkinetic Attention Deficit Syndrome ، وهو يركز على كلمة فرط.

يبدو أن كلمة "فرط" فى اللغة العربية، ليست مثل كلمة "فوق"، وهى ليس لها علاقة بكلمة "فائق" أو "تفوق"

كما أن ما وصلنى من اللغة الإنجليزية من استعمال مقطع Hyper فى هذا السياق، هو نوع من التركيز على كم (كمية) الإنجاز فى أداء سلوك بذاته، وهو يبدأ من تحديد ما هو عادى، ثم يضيف Hyper إليه كبادئة لبيان أنه يعنى ما هو "أكثر من العادى" بشكل يميل إلى ما هو إنجاز متفوق بشكل أو بآخر، وأنا لا أعنى هذا أصلا.

ماذا أفعل ؟

هل أراجع عن استخدام هذا اللفظ بعد كل هذا المشوار، والنبيض، والمضمون ، والشرح؟

خطأ التحيز ضد "العادى"

رحت أتذكر من أين جاءنى هذا الانطباع، فوجدت الأمر كالتالى:

كانت علاقته بما هو "عادى" علاقة سيئة طول عمرى، حتى أننى ما إن أذكر كلمة عادى حتى يقفز منى ذلك البيت من الشعر العربى الجميل الذى يقول

مسيخ مليخ كطعم احوار فلا أنت حلو ولا أنت مر

وهو بيت شعر قاله الأشعر الرقبان، وهو أسدى جاهلى يخاطب رجلا اسمه رضوان :

ثم إنى هاجمت ومازلت أهاجم ما يسمى "بالخل الوسط" أشد الهجوم وأبلغه فى كل مناسبة حتى رفضت تماما أن يحتزل الإسلام الخفيف إلى ما يسمى "الوسطية"، واجتهدت فى قراءة "أمة وسطا" بشكل آخر، وكلما توقف مريض فى منتصف الطريق ليرضى بالخل الوسط التسكينى مع اختفاء الأعراض، رضيت مكرها إلى عودة، وهكذا وهكذا، وكان تقديرى، ومازال أن الخل الوسط هو العادى الذى أرفضه بشكل أو بآخر اللهم إلا كمرحلة.

وقد تأكدت علاقته السلبية بالعادية بعد أن مسختها حين نبهت مرارا وتكرار إلى ضرورة الخذر من استعمال تعريف "النفس المطمئنة" بهذا المعنى الساكن، وأن علينا أن نكمل الآيات التى آية النفس المطمئنة حيث الدخول فى العباد يسبق الدخول فى الجنة

أما في ديوان "أغوار النفس" فقد تعرّى "العادى" بشكل أكثر صراحة، وأنا أشجب دور الإعلام العام، والإعلام النفسى الذى يشارك فيه المختصون بالفتوى الجاهزة، حتى أن بعض المرضى النفسى قد أدرج في المقطع الذى اخترته لأستشهد به هنا تحت ما يمكن أن يسمى "عادى" من فرط تواتره، هذا ما جاء في هذه الفقرة التى يصف موقف الطبيب النفسى والإعلام من مسخ المرضى النفسى إلى ما هو عادى من ناحية، وتسطيح الصحة النفسية إلى ما هو "بديهي" معاد من ناحية أخرى :

اللّه عليه، والسّتْ بيتمسّى عليه!

والشاشّة، والواقع، خُلاصة القول، منظوم الكلام:

آخِرُ تمام، فى حَلِّ مُعضِلَةِ الأتّام:

"لما كنا نَحْنُ فى عصر القَلق،

"نستعيد برَبِّنا مما خلق"،

يبقى لا زَمَنُ كلنا نقلق قوى،

واللى ما يقلقشى لا زَمَنُ يكتئب،

إمّالِ ايّـه...؟! !! !

ثم إنك - بعد ذلك - لم لا بدّ انك تسبب هذا "القلق"

علشان "تعيش"

ثم إن "الحزن" برضه مالوش لزوم

"طنّش" تعوم ! !

ما هو كله فى المافيش

ثم إوعى انك تنام من غير لحاف

أحسن تخاف

حيث النصيحة "لا تخف" هى التى:

لكُ عندى يابنى

"كى أبرئ ذمى"!!

ثم إن الأم لازم، إنّهّا تُحبّ عيالهنّ

.....

..... الخ

من أين وصلنى مصطلح "فرط العادية" بهذه السلبية؟

قبل أن أشير إلى معالم هذا المصطلح تفصيلا أود أن أعترف أنه وصلنى ابتداء من أ.د. سعاد موسى منذ سنوات طويلة وذلك أثناء تحضيرها رسالة الدكتوراه عن " الألكسيثيميا: Alexithyma وتعنى : صعوبة تحديد الوجدان وصعوبة التمييز بين المشاعر والأحاسيس الجسدية وبين الاستثارة العاطفية "

(وهي كلمة ذات أصل لاتيني فضلت تعريبها لا ترجمتها)، وقد اتصلت اليوم بابنتي أ.د.سعاد هذه لأسألها كيف ورطتني في تعميم استعمال مصطلح فرط المشاعر بالمعنى السلبي، مناقضا للمضمون الإيجابي الذي واجهني به جوجل اليوم، وقد أفادتني أنها فعلا التقطت المعنى السلبي دون الإيجابي أثناء إجراء بحثها، فطلبت منها القيام بالبحث عن هذا المعنى السلبي الذي أستعمله " يا باى، ماله عادى قوى كده ؟!!!"، وبعد ساعات اتصلت بي د. سعاد وقالت أنها لم تجد عن ذلك ما يفيد، وأنها لم تجد استعمالا للفظ Hypernormality له إلا في وصف "مشية معينة" للرجال والنساء لا أكثر ولا أقل.

أهكذا بالله عليكم؟!!

هل أترجع عن استعمال هذا المصطلح تماما؟

وحين جاءت إجابتي بالنفي، تبينت أكثر فأكثر، وتأكدت من ما حال دون مشاركتي في لجنة المصطلح النفسى الموحد

من أين نبدأ؟

منذ كتبت عن "مخاطر الترجمة" فيما يتعلق بالوجدان بشكل خاص على تشكيل مشاعرنا، كنت أشير إلى أن اللغة، مع الدين هما نسيج الثقافة لأي جماعة، وأن اللغة كائن حي، وليست صندوقا يحوى مفردات لحفظ المعنى أو المحتوى في كل،

وبمراجعة محتوى هذا الفصل الأول عن الصحة النفسية كما ورد في نشرة 2010-10-19_وجدت ما يلي:

"..... كذلك يشمل هنا الفصل تناول نتائج إنكار التعدد أو قمعه "بفرط العادية" فالغراب"

ثم قفز نفس المصطلح ثانياة بوضوح شديد، حين احتجته بإلحاح لأمير بين "حالة العادية" بحركيتها ونبيضا وتبادلاتها، وبين ما يسمى "عادي" بالمعنى الذى أوردته في مقدمة هذه النشرة وخاصة في شعري بشكل خاص، وربما هذا هو ما كان في خلفية تمسكى به لهذا الاستعمال الخاص حيث قلت: (نشرة 2010-11-10)

"..... فلو غلبت حالة العادية طوال الوقت، لتجمد الوجود، فيما يسمى "فرط العادية" الذى قد يشمل في تضخمه الكمي بعض ما يعرف بـ "اضطرابات الشخصية"

..... الخ.

إذن، أنا أبدأ، وأدعو أن نبدأ، من لغة الأم (اللغة العامية) ثم قد أسح - سمح- بعد ذلك بالنقل إلى اللغة الأم (العربية الفصحى) دون الالتزام بوجود ما يقابلها في أية لغة أخرى مهما ساد أهل هذه اللغة في القوة، أو المال، أو السلاح، أو القتل، أو الوصاية، مع كل الاحترام واستمرار التعاون، مع من يهمله أمر المعرفة دون احتكار التفوق.

إن هذا يستتبع أن نحرص على نبض لغتنا مهما كان الإغراء

واضحاً، فلا يوجد مبرر أن أترجم حالة "الهوس الدورى" أو غير الدورى إلى "الاضطراب ثنائى القطب"، وهو تشخيص مستحدث لا يفيد شيئاً إلا ما وضع تعسفاً في التعريف به ، حتى أصبح المريض المصرى (أو العربى) يحضر فأسأله مم يشكو، فيقول إنه يشكو مما هو "ثنائى القطب"، وليس من الأرق، أو تنقل الانتباه، أو كثرة الحركة، أو تجاوز الحدود، ..إلخ، فأعود أتأكد من موقفى، علينا أن نحترم البداية من لغتنا ومن لا نجد في لغته لفظاً مقابلاً فليفعل مثلما فعل "أرثر يوحنا أربرى" مترجم النفرى حين لم يجد بديلاً يقابل لفظ "موقف" كما استعمله النفرى، فاستعمل لفظ Mawquif ، وأيضاً مثلما حدث لى حين عجزت شخصياً عن العثور على ما يقابل لفظ "وجدان" بالإنجليزية فأدخلت هذا اللفظ إلى اللغة الإنجليزية في مقال نشر في المجلة العربية للطب النفسى بالإنجليزية هكذا **Wijdan** حيث وصفت به بعداً مستقلاً في التصنيف الذى اقترحتة نابعاً من ثقافتنا وهو Wjdanic Dimension (وقد سبق أن أشرت أكثر من مرة إلى هذا تحديداً هنا في هذا العمل وفى غيره).

خاتمة :

أكرر أنى سوف أستمر في استعمال مصطلح "فرط العادية" كما ظهر في النشرات حتى الآن ليعنى ما يلى :

(1) استعمال آليات الدفاع (الميكانيزمات) التى يستعملها الشخص العادى بإفراط مشؤهُ أو معطل.

(2) تماسك الشخصية في حدود السمات المألوفة عادياً (بالمعنى الإحصائى)، وذاتياً : بمعنى ما ألفه الشخص عن نفسه من سمات، كما ألفها المحيطون به، لكنه تماسك قابض خانق للحركة.

(3) ويترتب على الإفراط في هذا الاستعمال الدفاعى: إعاقة نبض النمو بالتبادل الفاعل بين الحالات، سواء بالتبادل في الإيقاع اليوماوى وحتى ما دونه في وحدات زمنية أصغر فأصغر، أو بالتبادل في أزمت النمو (الثمان على الأقل حسب إريك إريكسون)، وهذا الإفراط هو ما يؤدى إلى عتية ما يسمى "اضطرابات الشخصية" **Personality disorder**

(4) إن ظهور أعراض تسمى عصابية **Neurotic** نتيجة استعمال مفرط لهذه الميكانيزمات "العادية" ، دون التمداد في تشويه الواقع تماماً أو إنكاره على إطلاقه، وأيضاً دون التمداد حتى تشويه الشخصية وتغييرها سلبياً إلى ما ليست هي ، وهذا ما أعنيه بالجنون، (أنظر قبل ، وبعد)، هو أيضاً نوع من فرط العادية في مجالات من السلوك متفرقة نوعاً ما.

وبعد

أتوقف هنا لأوصل هذا الاستطراد غداً وأنا أعيد النظر في تمسكى بلفظ "الجنون"، وليس لفظ "الذهان" لنفس الأسباب السالفة الذكر (برغم احتمال التكرار الضرورى).